(الوجدان)
الامتحان

-١٥-

فائق بطي

لأهمية كتاب فائق بطي (الوجدان) الذي بث فيه سيرته الذاتية عبر نصف قرن من تاريخ العراق الحديث، آثرت (المدى) الثقافي أن تنشر بين وقت وآخر حلقات من هذا الكتاب الذي سيصدر عن (المدى) بدمشق قريباً لما يلقيه الكتاب من ضوء على مفصل مهم من نشوء الصحافة العراقية، وتطورها وأثرها في المعترك السياسي، واثر التحول من النظام الملكي إلى الجمهوري وما رافقه من أحداث وانقلابات. والكتاب من زاوية أخرى يكشف أسراراً وحلقات مؤثرة من تاريخ العراق السياسي والثقافي.

(المدى الثقافي)

١٥ نيسان- ابريل ١٩٧٩
غادر موسكو الى باريس

لم يكن يعرف من الاصدقاء في باريس سوى عبد القادر العياش واشقائه، شوقي، ضياء واحمد. حصل على رقم الهاتف من بغداد، فآل العياش، يديرون مطبعة تجارية في قلب العاصمة الفرنسية.

حط رحاله بعد منتصف الليل في مطار "أورلي". اتصل من قاعة المطار بعبد القادر الذي رحب به بحرارة وطلب منه ان يتجه بسيارة اجرة الى العنوان، فالمطبعة ليست بعيدة عن المطار. ان باريس مدينة جميلة وكبيرة، يتيه فيها حتى الفرنسيون.

بعد عناق طويل، طلب منه عبد القادر (ابو رافد) المكوث تلك الليلة في المطبعة، ومساعدته في انجاز مطبوعات مهمة ومستعجلة لمؤتمر نقابات العمال الفرنسية الذي سوف يفتتح في الصباح الباكر. لم يرد لعبد القادر الطلب. فكل الذي كان يريده في تلك الساعة المتأخرة من الليل ان يضمن له قضاء الليلة في المطبعة لحين ان يتدبر الاخوة الامر في اليوم الثاني. طمأن العياش، وكان قد بدا على وجه عبد القادر التعب والاعياء، وطلب منه ان يذهب الى داره، ويعتمد عليه في انجاز العمل.

استطاع ان ينعم بساعة من النوم قبل ان ينبلج الفجر، عندما ايقظه ابو رافد وهو يقبله ويشكره على ما انجزه من عمل كبير، كان عاملا مهما لانقاذ صاحب المطبعة من الورطة.

رن الهاتف في مكتب عبد القادر، واستمع اليه وهو يتحدث مع سكرتير نقابات العمال، ويخبره بأن الفضل في انجاز كل الاعمال المطلوبة لافتتاح المؤتمر، يعود الى ابن الوزير العراقي الذي كان يشتغل عاملا في جريدة والده ببغداد في منتصف الخمسينيات.

ضحك الصديقان، ثم توافد على المطبعة في الساعات الاولى المبكرة اخوة عبد القادر، وقضى معهم بقية النهار، قبل ان يستقر في الفندق الذي قاده اليه، شوقي، والذي مكث فيه اسبوعا قبل ان يترك باريس.

من باريس، اتجه الى لندن.. مدينة الضباب كما يقولون..

كان ولده رافد قد سبقه الى العاصمة البريطانية في صيف ١٩٧٨ للدراسة الجامعية. قال له بعد ان استقر في غرفة كان قد استأجرها له قبل قدومه الى لندن، وقبل ان يباشر والده في افراغ محتويات الحقيبة، قال له بصوت حنون:

- هل ستبقى في لندن فترة طويلة يا ابي؟

لم يكن رافد يدرك بأن العراق قد بدأ يتحول الى جحيم على يد حكم جاهل متخلف يقوده رجل كان قد تخلى عن آدميته منذ الصغر، اطلق عنان القتل والفتك لشلة من الأميين والمجرمين الذين لا يعرفون من الحياة سوى اغتصاب الأرض والانسان، والتعذيب المميت في سبيل تحقيق مآرب لم يدركوا محدودية زمنها، شلة مطيعة لسيدها وولي نعمتها.

نظر الى فلذة كبده الذي يعشقه ابنا بارا وشهما ذكيا، واراد ان يطمئنه على الجواب، فرد عليه بصوت أبوي محب:

- سوف ابقى في لندن معك، فهي مدينة حلوة، والبقاء فيها مع من احب، احلى واحلى.

ارتسمت الراحة والقناعة على وجه رافد، فهو ايضا يعشق والده الذي رباه على حب الناس، والتمسك بالقيم والتقاليد الحميدة.

نظر في وجه ابنه مليا، تذكر طفولته، ثم بلوغه سن الشباب والرجولة، وهو ممتلىء بالحيوية والصحة، وتذكر ما كان يقول له الاصدقاء والاقارب الذين توسموا فيه تلك الرجولة قبل ان ينضج، وبدأوا يفكرون باعداده ليكون في المستقبل سائرا على دربهم ودرب والده، وفي زمن بدأ فيه الانسان العراقي الشريف يشك في انسانيته، والسياسي يفقد توازنه، والايديولوجي يتنكر لاحلى القيم في المبادىء التي يؤمن بها.

اطال النظر الى ولده رافد، وقرأ فيه احلى ذكرياته في بغداد، حيث كان هذا الشاب في كلية بغداد، رياضيا يمارس لعبة كرة القدم، وفنانا موهوبا تداعب انامله آلة الغيتار وبمصاحبة فرقة من الهواة، في مقدمتهم، الشاب ماجد ككا، الطالب القادم من القوش. عادت به الذكريات الى الكرادة الشرقية، في الشقة التي استأجرها في ارخيته بالقرب من شارع ابي نواس، بعد ان ضاقت بهم سبل العيش، وأجر داره في الجادرية الى شركة اجنبية، ليستطيع سد نفقات المعيشة المتصاعدة. وتذكر حادثة طرده من كلية بغداد من قبل مدير اجهل من اسياده، وكيف تحمل رافد ذلك الاجراء السخيف، وواصل استعداده لاتمام امتحانات مرحلة البكلوريا، واستطاع ان يحصل على اعلى الدرجات في معظم المواد.

تذكر، واستذكر كل ذلك الشريط، ورافد اليوم امامه ثانية في لندن، طالبا في جامعة "ريجموند" الامريكية، يواصل هواياته، ويزامل طالبا امريكيا، يعزفان على "الغيتار" في محطات الانفاق في اكثر من منطقة في لندن. و عندما يسأله عن تلك العادة،خصوصا انه لا يحتاج الى النقود، كان يبتسم ابتسامة طفولة محببة الى قلب الأب الحنون، ويؤكد بأن كل الذي يريده من هذه الممارسة، زيادة التمرين، وانه يفرح عندما يشاهد المارة تسخو لهما بالعطاء، لا حبا بالمادة، بل لادراكه بأنه يقدم للناس شيئا من الموسيقى والفن الذي يحبه، ولا ينسى رافد من ان يداعب والده حين يقول له بأنه شاب يكسب بعرق جبينه عن طريق عمل عشقه منذ الصغر.

كانت اللقاءات بينه ورافد، اسبوعية. فالولد يقيم في القسم الداخلي بالجامعة التي تحتل مساحة جميلة من منطقة الجنوب الريفي من مدينة لندن الكبيرة، بينما يقيم هو عند عائلة عراقية في شمال العاصمة. في تلك اللقاءات كان يتحدث مع رافد عن الجامعة والدراسة.. عن اخبار العراق والسياسة، وعن الاصدقاء في لندن.

في تلك المرحلة، كانت قد غزت العالم، مودة وافدة من وراء المحيط، وشكلت مظهرا أ بهر واستحوذ على عقول الشباب والمراهقين، في الملبس والشكل، ولم يكن رافد غريبا عنها. فقد اعتبرت تلك التقاليد نموذجا للعصرنة والتقدم، والمخالف لها، انسان معقد ومتخلف عن ركب "الحياة الجديدة". فهل سيتخلف رافد الذي يعيش الآن في بلد غربي عن اللحاق بتلك "الصرعة" ؟

❖❖❖

ذهب مع رافد في يوم هادىء الى زيارة احد الاصدقاء المقربين، الذي يسكن في ارقى منطقة من مناطق الجنوب الانكليزي تعرف بأسم تشتهر به بطولة "التنس" العالمية، "ويمبلدون"، ذهب وهو مقتنع بان هذا الصديق العزيز سيفرح للقائه بعد سنوات الغربة، وقد نال من الاثراء ما يبهر الانسان، ويعيش كما يعيش أي لورد انكليزي وفي قصر فكتوري قل شبيها له في لندن. وكان رافد، بشعره الطويل، فرحا ايضا بلقاء ابنيه نصير ونينا اللذين لم يرهما منذ ان غادرا بغداد مع والدهما قبل سنوات. ابتسم المضيف في بادىء الامر ابتسامة خفيفة لم تدل على الاشتياق والفرحة باللقاء، ثم خرج من الغرفة للحظات. نظر رافد الى والده متعجبا، لكنه كتم الحيرة في نفسه، كأنه يتوقع شيئا ما سيحصل.

بعد قليل، دخل الابن نصير الى غرفة الاستقبال، ونادى على رافد، وانتظر هو بدوره لملاقاة العائلة. لحظات محرجة، عاد ثانية رافد اليه وهو حزين ومصفر الوجه، والدموع تكاد تقفز من عينيه، مودعا الوالد لأنه نسي شيئا في الجامعة !! لم يفهم السر وراء تصرف رافد المفاجئ. وعندما ترك رافد الدار، دخل الى غرفة الاستقبال ثانية الصديق مرحبا به من جديد. ولم يفهم ثانية السر وراء كل ما يجري في هذه القلعة.

في اليوم الثاني، عرف السر..

حكى له رافد ما جرى في قلعة الصديق اللورد ، وقال متألما بأن نصير طلب منه بناء على أمر من والده ان يترك الدار فورا، وادعى بأن والده لا يريده ان يتعلم من رافد العادات السيئة ويقلده في طريقة لبسه وانسياب شعره الطويل. فاللورد يعتبر تلك المظاهر ميوعة على حد تعبير الوالد المتعصرن بكل شيء الا بتلك الامور التي تمس مملكته ومكاسبه.

صعقه هذا الموقف من صديق كان يكن له المودة والاعتزاز. وحاول ان يقنع رافد بأن الذي جرى، خارج عن ارادة (صديقه)، وطلب منه ان يغفر له، محاولا ان يخفف وطأة الامر على ابنه.

نظر رافد مستغربا لما سمعه من والده، ثم قال بصوت ينم عن ألم مكبوت:

- انت يا والدي لا تعرف من هو الصديق الوفي والصديق المتزلف.

تعجب من كلام الولد، وسأله:

- لماذا يا ابني مثل هذا الحكم؟

قال رافد بهدوء، محاولا ان يخفف عن والده الصدمة:

- لأنك يا والدي العزيز حسن النية وطيب القلب ولا تمس احدا بسوء، وانا نشأت على هذه الاسس القيمة. اليوم بدأت اواجه الحقائق بمنظار آخر. فهناك اناس لا يقيمون وزنا لأحد الا بقدر ما يحققون من مكاسب لأنفسهم..

احتضن ابنه بقوة ، وامتزجت دموعه بالحسرة التي غص بها، ونظر بحنو الى ولده الذي بدأ ينضج اكثر فاكثر، وقال له بصوت مرتعش وحزين:

- انت محق يا ولدي.. ولكني ما زلت متمسكا بالطيبة التي تربيت عليها أبا عن جد.

ابتسم رافد، وطبع قبلة دافئة على خد والده وقال:

- والى متى تنتظر حتى تثبت لك الايام ما الذي ستجنيه من طيبتك.

تفارقا، على أمل ان يلتقيا في الاسبوع القادم.

في ليلة من ليالي الخريف، الح عليه احد الاصدقاء ليصاحبه الى كازينو للمقامرة مشهور في وسط لندن، وفعلا ذهب معه مشترطا عليه ان لا يتأخرا كثيرا، وهناك التقى بأحد معارفه من بغداد، عصام القاضي، التاجر الغني والكادر الشيوعي المتقدم في فترة ما قبل انقلاب ٨ شباط عام ١٩٦٣ استغرب عصام تواجده في هذا المكان، فطمأنه بأنها زيارته الاولى وربما ستكون الاخيرة.

سأله:

- متى قدمت الى عاصمة (الاستعمار)؟

رد عليه بسخرية وخبث:

- قبل ثلاثة اشهر.

- وما الذي ستفعله بهذا البلد؟

- ابحث عن الاصدقاء الطيبين ان وجدوا.

راح عصام يعدد له اسماء البعض من الاصدقاء الموجودين، فطلب منه هواتف ثلاثة منهم: شامل النهر، محمد حسين الملا، وفريد الاحمر.

بعد ثلاثة ايام، اتصل بشامل النهر وزاره في مكتبه الذي يقع في شارع " ويمبول ستريت" الموازي لشارع اوكسفورد الشهير في مركز العاصمة البريطانية. كانت جلسة لطيفة، ضاعت فيها الساعات الطويلة في خضم احاديث وذكريات وصولا لاحداث الساعة، وبينها قصص عن الهجرة والسياسة والحكم في الوطن، ومرورا باوضاع الرفاق في الداخل والخارج. اثناء الحديث ادرك نوايا ابي بشار الحسنة في الاستفسار والاطمئنان عن صحته وفيما اذا كان يحتاج الى اية مساعدة في غربته المفروضة عليه وعلى كل العراقيين منذ عام ١٩٦٣ حتى وصوله لندن في صيف ١٩٧٩، وطلب منه ان يدله على عناوين مؤسسات اعلامية عربية في لندن.

لم تكن هناك آنذاك اية مؤسسة او صحيفة عربية في تلك الفترة. اما عن الاعمال الحرة والتجارة فلا ناقة له فيها ولا جمل.

في لقائه الثاني مع شامل النهر وصديق آخر قال له:

- لماذا لا تجرب الحظ مع المطابع، خاصة وانك صاحب باع طويل في هذا المجال.

التقت رغبة الثلاثة؛ شامل، والصديق الفلسطيني،حسن شبيب، زميله في الجامعة الامريكية بالقاهرة سابقا، والذي امتهن التجارة في عاصمة الضباب ونجح فيها.

عقد العزم على تنفيذ الفكرة.

ساهم ابو بشار وحسن بمبلغ لشراء ادوات مطبعة تجارية صغيرة بدائية جدا، شغلت غرفة صغيرة في مكتب شامل النهر، وبدأ هو العامل الوحيد فيها، حيث ينضد ويطبع ما تحتاجه المكاتب التجارية الصغيرة.

كبرت المطبعة بعد ضخ مبالغ اخرى من الصديقين، واستأجر محلا استوعب عددا من مكائن الطباعة وملحقاتها في شمال لندن، لا يبعد عن مكان سكنه سوى بضعة امتار. وضع كل آماله في هذه المطبعة، التي ستدر عليهم ارباحا تحقق موردا اضافيا للصديقين وعونا له ليحقق عيشته.

الطريق إلى الكويت .. الطريق إلى البصرة

طالب عبد العزيز

المكان: مقهى عبد الله المعيوف، على نهار السراجي، قرب الجسر
الزمان: مطلع الستينيات من القرن الماضي.

المشهد: شاشة بيضاء، على منضدة مرتفعة في المقهى التي تظللها شجرة نبق عملاقة، تغطي الباحة والغرفة الشتوية التي يطل شباكها على النهر، بل ان طارمة المقهى تلامس المدخل الحديدي للجسر، فلا تكاد تعرف من يحتضن من، وهل كان الجسر مقهى؟ ام كانت المقهى جسراً، فالقطعة التي يتشكل المكان منها تسمى حتى يومنا هذا بـ(المعبير) إذ لم يكن هنا جسر ولم تكن هنا مقهى.

سيظل الطفل الذي يصطحبه اخوه الاكبر مشدوداً للشاشة البيضاء، ويظل عنقه مشرئباً إلى الضوء السحري. وبعد قليل سيطل المذيع الشاب احمد عبد العال والانسة أمينة الشراح ومن ثم هدى المهتدي او اختها ندى ليعلن احدهم عن بدء بث المسلسل المحبوب (عائلة بو جسوم) وحتى مجيء اللحظات تلك كان على الصبي ان لا يستمع لاغنية -عادت بنا الايام فوق السفينة، لشادي الخليج أو سعود الراشد باغنية على يا دان يا دانه وهو يحتضن عوده الشهير، وبين هذه وتلك سيرى الدفوف الكبيرة، وقد خطت على جلدها بالاصبع عبارة -فرقة عودة المهنا- سيرى نساء يضربن الدفوف. وهن جالسات يغنين اغنية عن البحارة العائدين من الغوص، او الذين انكسرت سفنهم في عرض البحر، وظلوا هناك تتمزق أفئدتهم تباعاً. ولا يعدم ايضاً ان يرى اغنية للمطرب النحيل عبد الحميد السيد، او اخرى لعوض دوخي او الكويتي الذي أسلم باكرا محمود بغترة بيضاء وعقال وضع مائلاً مع مجموعة العازفين، وقبل ان ينفد صبر الصبي يعلن المذيع ان الوقت قد آن لعرض مسلسل (عائلة بو جسوم) فتنشرح أساريره، ويهش ويبش حين يبدأ رويشد بافتعال المقالب والخصومات بحيله الصبيانية النزقة بينما لايني أبو جسوم يسامحه ساعة ويؤنبه أخرى، ثم تختال ام جسوم بثوبها الهاشمي الاسود، وشيبها المصبوغ بالحناء، فيضحك الصبي ومن في المقهى وتهتز الأرائك البالية وتنقلب استكانات الشاي التي ما يني ابو نوري يقدمها للجالسين، فيلاحظ الصبي ان عقال ابي جسوم من النوع الذي يسمى عندنا بـ(المكصب) لكنه متأكد بأنه قد رآه من قبل في احد الادراج، عندهم في البيت، عقال من قصب وقماش وخيوط صفراء، يقول أبوه بأنه لعمه الذي مات نهاية القرن ويمعن النظر فيرى البشماغ البحريني المنقط بنقط تكاد تبين في الالكترونات المتراقصة على الشاشة، ولطالما رأى مثله هنا في القرية التي لم تسم بعد في الصحف واجهزة العرض وغيرها، لكنه يشماغ يشبه يشماغ السيد عبد الرزاق العثمان او الذي يرتديه الحاج محمد الحمد الملا. ثم انه لا يجد فرقاً بين اليلك الذي ظل ابو جسوم يرتديه طيلة سنة كاملة في التلفزيون وبين يلك عودة اليعقوب (أبو سالم) بل هو عينه، وهكذا راح الصبي لا يميز بين ما يراه في الليل على الشاشة وبين ما هو كائن في القرية، بيوت، رجال ونساء، علاقات حتى حين اطال النظر في فوطة ام جسوم والبوشي الذي تضعه على وجهها وهي تطل من خلفه متحدثة مع أحد الرجال عند الباب، بنصف وجهها اذ كانت تشبه امه او امرأة اخرى في احد سكك القرية (الفريج). وحين كانت الكاميرا تنتقل بين اثاث المنزل كانت عيناه تقعان معها على باب الدروازة الكبير، ومحمل كيزان الماء في الليوان، المدانة، الشربة او الشرابي الفخار الصغيرة باغطيتها البيضاء الململ. المهافيف في الرواشن والزجاج الملون، القدور، انواع الطعام، الموش، الروبيان، السمك، الاواني النحاسية وابريق الشاي، ولما اضطر المخرج للانتقال خارج المنزل، وصارت صورة الزقاق (السكة) على عرض الشاشة كانت توهمه بان الكاميرا انما دخلت سكتهم (سكة احمد عبد العزيز).

أذهله التوافق هذا، وراح لا يفرق بين عائلة (بو جسوم) وبين أي عائلة اخرى في القرية، طبيعة الحياة، السكن، الافراح ، المشاكل، الطعام، هيئة الابنية، السقوف، الحيطان، مفردات الحياة الاخرى كاللغة واللهجة ومخارج الحروف، وما ان شعر ببعض المفردات وهي تتسرب في لغة الحوار مثل، البصرة، الزبير، ابو الخصيب والبنكلة والتمر، شط العرب واظهر (بمعنى اسافر) مسيد (مسجد).... وغيرها حتى احس تماماً بتطابق المرئي والمعاين، وما بيت ابي جسوم بمنزل على شاشة بل هو واقع يومي حقيقي. وما الناس الذين فيه الا اناس معه في هذه القرية المسكينة البائسة، فرويشد هو احد الصبيان النزقين الذين لا يكفون عن ابتكار المقالب والخروج عن طاعة الجد، وعصيان الاهل بالمزحة البريئة الساذجة.

من هنا صارت شاشة تلفزيون الكويت التي سبق دخولها أي شاشة اخرى، اذ ظلت البصرة حتى بعد انقلاب عام ١٩٦٨ لا تعرف شيئاً عن تلفزيون بغداد، صارت النافذة التي يطل الصبي منها على نفسه، وصارت الاسماء التي ورد ذكرها انفاً تتشكل في الذاكرة الغضة، لا بوصفها حياة ممثلة على شاشة وانما حياة فعلية لا تختلف عما يراه ويسمعه يومياً، ولم تفلح قناة تلفزيون البصرة البعثية ذات البث الرديء المفتعل والمتكلف في ان تخترق روحه الصغيرة، اذ لم يجد فيها ما يتشاكل وينسجم مع ما يشاهده على شاشة أمينة الشراح وماما أنيسة وشادي الخليج وعائلة بو جسوم وسعود الراشد واغاني البحر والمهيلات وحكايات الغوص، بذات النبرة القريبة إلى روحه اذ المفردات تخرج من القلب لتستقر في لبه، بياءات خفيفة بريئة عكس ما كان يعانيه من جيمات اهل بغداد البعثيين، ومفرداتهم المضمومة دائماً التي ان اراد ترديدها فعليه ان يستبدل اشداقه كلها لكي يجيد لفظها.

لا أريد هنا ان اسلخه من عراقيته كما يظن البعض لكني اريد ان اؤسس لبصريته، واكرس عراقية من نوع خاص، متعالقة من غير تقاطع مع الناس هنا في الخليج، إذ لا يعرف أهل البحرين مثلاً عن العراق اكثر من معرفتهم عن البصرة وكذلك اهل اليمن والكويت، فالعراق عندهم البصرة، ولو سألت احدا من اهل عمان ماذا تعرف عن العراق لقال لك البصرة، من هنا اردت في الورقة هذه ان ابين سر العلاقة العميقة والوئام شبه الابدي مع هؤلاء الاشقاء.

ونحن حين نتحدث عن سيرة العائلة البصرية منذ ان عرفت البصرة كحاضرة للعرب المسلمين، نقول بأن المدينة متقطعة الصلات مع المركز بغداد ومتصلة العلاقة مع الخليج والساحل العربي عموماً، اذ كان البحر وما زال مروراً بشط العرب طريقاً سالكاً على مر العصور بينما ظل الطريق إلى بغداد محفوفاً بالمخاطر حتى يومنا هذا، وبقيت البصرة المتجر الكبير الذي يؤمن حاجات الامارات على الساحل العربي حتى وقت متأخر من النصف الاول من القرن الماضي، وما زالت صورة العمانيين واليمانيين والبحرينيين في ذهن الصبي الذي كنته حتى اليوم، ومن هنا فأن البصري يشعر بانتماء متبادل مع هؤلاء بينما يجد قطيعة حقيقية مع مواطنيه من اهل القرنة مثلاً، واذا اراد الباحث الحصيف ان يستخلص صورة أمينة لذلك فسيجد ان جسر الكرمة يكاد يكون فيصلاً بين نمطين من الناس: عرب وحضر، (نحن نتحدث وفي تصورنا مدينة لم يدخلها احد من غير اهلها) أي قبل مئة عام مثلاً. فحياة الناس في أبي الخصيب تختلف تماماً عن الحياة في الهارثة ابتداء من التكوين الاجتماعي (القبلي) وليس انتهاء بلون البشرة او اللفظ وطريقة العيش، نوع الارض، النخل حتى النخل تختلف انواعه، المد والجزر، الخضار، الفاكهة، ادوات الفلاحة، حتى الزي، طريقة ارتداء العقال، لون اليشماغ.. الخ، وظل البصري يتوجس خيفة من علاقته مع كل من سكن بعد جسر الكرمة فهو لا يشعر بالامان معه لكنه يشعر بالامان كله مع كل من سكن بعد جسر الخورة حتى آخر نقطة في رأس البيشة، بغض النظر عن الانتماء العرقي او الطائفي او المذهبي او غيره، وهو تكوين خاص ابتكرته العلاقة السرية للاشياء ولم تمنحه السياسة او الاديان.

واذا ما اردنا ان نتحدث عن العلاقة بين البصرة والكويت والتي يتمحور موضوعنا حولها، فمن السخف ان نتحدث عن سيد وتابع ومالك وفلاح، تاجر ومستهلك... اذ لم تتشكل العلاقة هذه بوصفها التجاري المادي، وهي ليست وليدة أحداث السياسة ولم يكن الحال رابطاً، فقد كانت البصرة غنية والكويت فقيرة. البصرة بمائها ونخلها وغلاتها الاخرى والكويت بصحرائها وندرة موارد الحياة فيها، وتلك الايام تداولها بين الناس، فيخطئ كل من يظن بان الرابطة بين البلدتين رابطة مادية بحت، أو سيد مالك غني وعبد معدم فقير، غير ان الحياة تشترط على الناس طبيعة وتتجنب اخرى، واذا عدت إلى الوراء فلن تعدم عائلة بصرية لا ترتبط بنسب صريح مشترك مع مثيلتها في الكويت، وهنا لا اقصد الاسر المالكة، وان حمل بعضهم الجنسية العراقية يوما ما. لكني اقصد الاسر العريقة التي تشكل حضورها الاجتماعي قبل النفط وتجاوز الحدود، تجاوز الخرائط الحديثة، فهذه اكبر من الحكومات والممنوعات وارهاصات المال والسياسة.

ولكي يقع القارئ على صحة ما نذهب اليه، فليذهب بنفسه وليطلع على خرائط الانهار والبساتين والاملاك، وليلمس بضميره الاسماء التي تدوي اليوم في عالم المال الكويتي، ليرى ان الاسر هذه ابتدأت هنا، قبل عشرات السنين، وتأسست في محيط البصرة لكن المتغير السياسي العراقي اضطرها للخروج واستبدال المكان والهوية وجواز السفر، استبدال الحياة التي اتسعت خارج العراق بينما ضاقت داخله. وأورد مثالاً بسيطاً على ذلك ففي قرية صغيرة واحدة تدعى (عويسيان) هناك جبلان سميا مجازاً، وفي الحقيقة هما تلان ترابيان ارتفاع كل منهما يتجاوز الخمسين قدماً. يسمى الاول بجبل القملاس والثاني بجبل الدويش لا يعرف احد من الاحياء الان متى اقيما ومن اقامهما وكيف؟ وهناك عشرات البساتين لمالكين من عوائل العون، الزهير، ابو الخيل، الدويش ، القملاس، العوجان، المحري، الحميضي، العتيجي، البابطين.. الخ.. وليست هذه الاملاك وليدة البارحة، بل هي لهم منذ عشرات السنين وقبل اكتشاف النفط قبل الحكومات والسياسة وبورصات الصكوك.

وقد لا يتسنى لقارئ عجول تحديد اصل هذه العوائل، ولا اذهب بعيداً اذا قلت ان بعض الاسر الفقيرة في البصرة الآن انما جاءت من الكويت او السعودية واستوطنت العراق، ولم تهاجر مع من هاجر، ولو انها ظلت هناك لصار حالها مثل حال غيرها من الاسر الفاعلة اليوم في المجتمع الخليجي وإذا اردت ان اسمي احداً فأقول: بيت الدغمان وبيت الغانم وبيت الهارون او الرشيد.. وليس مستبعداً ان تجد شقيقين ظل احدهما فقيراً في البصرة بينما صار الاخر موسراً غنياً هناك، وهما يحملان ذات القلب، من هنا لا يمكن النظر لمثل العلاقة هذه على اساس الميل والانحياز والتبعية فنحن نتحدث عن حقيقة اجتماعية وتعالق جذور واصلاب ومعان حددتها طبيعة الحياة وبنية التركيب الانساني النزاعة نحو الخير والوفاء، وما يقترحه الناموس الخفي للمصالح ولا غرابة في ذلك، ففي الجغرافية التاريخية الاجتماعية في العالم الكثير من ذلك، وقد قال فوزنيسكي متحدثاً عن احدى المدن الروسية: هناك الكثير من الاغريق في بطرسبورغ. ومثل هذا يبكي البعض مدناً تبعد آلاف الاميال عنهم، ويفرح الاخر لافراح آخرين ولا تربطهم جغرافية مشتركة ولا انحدار عرقي مشترك، بينما يجد البصري والكويتي اكثر من ذلك بكثير.

ما زال الصبي يحدق بالشاشة البيضاء الراكدة، يسمع لغط بعض (المثقفين) وهم يتناولون العلاقة الكويتية العراقية بالسوء، ترى لمصلحة من، ومن أجل ماذا؟

ومثل جرس مائي بارد ايقظه صوت شادي الخليج وهو يقول: نحن عدنا ننشد الهولو.. نحن عدنا للمدينة. فيتذكر كتاب (النور من الداخل) لمؤلفه محمد الفايز، الذي لم تسبق قراءته له أي كتاب آخر، لكن محمد الفايز كويتي لا ينكر اصله العراقي، ترى ماذا يريد المثقفون منه، يترك قراءة الفائز؟ ويقرأ اسماعيل فهد اسماعيل ولا اظن احداً لا يعرف من اسماعيل هذا، يهدي احدى كتاباته للشيخة نزهة الصباح بنت خالة محمود البريكان ام يشير لبستانهم الذي لا يفصله عن بستان الشيخة سوى نهر (شاخة) لا تتجاوز الثلاثة امتار، الا يرد على سؤالها وهي تسأل عن صحته وتستفسر منه عن الفسائل الصغيرة التي زرعها ابوها الذي رحل مطلع الخمسينيات من القرن الماضي. هذه النفوس المريضة تريد منه ان يكون مثلها، لا ليس بمقدوره ذلك، وهو لا يتحدث عن ولاة، هو يتحدث عن وطن لم يفهم ابناؤه بعد ماذا يريدون.

هذا الشعور الدنيء بالآخر، هذه المواطنة الزائفة التي تروج للاحتواء والضم، والعراق الكبير الذي انسلخت اجزاؤه، هذا الترديد الرخيص لطروحات العامة أليس له حدود؟ أما آن لنا ان نصنع وطناً انموذجاً متجاوزاً عقد الحكام الذين وجدوا فكرة المطالبة بالاراضي المحيطة ببلدانهم اقصر الطرق لدغدغة مشاعر الجماهير، هذا الاستعراض الفج للوطنية، وكأنهم قد حققوا كل شيء لشعوبهم الا هذه. ليس مهماً ان تبني بيتاً كبيراً لكن المهم كيف ستبنيه.

مساء الفتوحات

زيارة مهدي

الأرض التي تنهدم في الجوار
أحاول ترتيبها
إنما احتاج إلى معول وعصور!
.....
.....
ذلك هو مجدي
صحيفة علقتها فوق صدري
صحيفة... أكلتها الحروب
ولم يبق لها
غير.... آخر حرف لأسمي
.....
.....
لذلك اقول انا هيبة لارتقاء ذليل
ولكن لا اصدق
إن أشباهي.. بقصد تزيين الخطاب
إنهم قادرون
على استيعاب هذا الارث
الملغز دائماً بتحولات لا يرونها
فأنا... موت قائم
لفتوحات تتكرر مثل التقاويم
أما غيري فهم
ملصقات.. تتعلق بتاريخ بائس
أنا مثلاً..
ادخل في تصنيع انتصارات
تسعى الى ترشيق حضارات
لا تقوى على الوقوف
على جيل.. واحد
أما هم فسيظلون هكذا
في كل انقلابات الحال
عملة.. ! او عمالاً تحت خراسانات
اعرف انها ستطوى
لا كتلة كتلة بل ملفا ملفا
.....
.....
يا مساء الفتوحات
قلنا هذه آخر حرب مقدسة!
تلملم ارواحنا!
وقلنا.. هذي تلول
لاجساد مذهبة بالطعن
تلك شاراتنا اتخذتك
يوم كنا نؤسس اسطورة
الركض.. بلا اسلحة او تروس
.....

.....
يا مساء الفتوحات
ابقيتنا.. موتا مضيئاً
تشير الينا
إطرافنا المدلاة على الاوسمة
ماذا دهانا؟
الفاتح يتكرر فينا
يكرر اسطرلاباته- تشير إلى تاريخنا
الرازح تحت اعمدة الفتوح
اعمدتنا... أيتها الرخوة
كم هدمنا ناسا بك؟
ألهذا تصرين على غياب عاجل
غياب نعلقه على بوابات لا تؤرخنا!
.....
.....
يا مساء الفتوحات
صناع المباهج
عاطلون عن اتلاف الخيبة
لانهم يرتقون الشوارع
بموسيقى الرتل
لانهم يؤثثون
ساحاتنا بنبر مدروس
ويأمروننا:
ان ارفعوا راياتكم!
.....
.....
رايتنا المطعمة بأسماء اضرحة
وضحايا
.....
.....
ألهذا لا أكف الكتابة
عن تأصيل ما ينبغي من حروبي؟
حروبي الواضحة
بانهياراتها الدالة
هكذا..
ارتب عزلتي
هكذا ادخل في الحيز المفضوح
يعرفني بياض اوراقي
هكذا..
أضيق على النص بإشاعة المعنى
هكذا احتويك
أيها الجفاء الذي الملمه بانتشار اصيل
ربما لأجل هذا
أحيط أناي المفرطة بانثلامتها
أناي المولعة بانضاج الهزائم
الهزائم التي أخبئها
تحت ركام الخوذات
ربما أحيطها بعلامات
تدلها إلى اسفل خالد
هكذا انتهي
عاجزاً عن رد غبار معركة ثقيل
واعمى
هكذا أعلن
ان لا شيء في مرايا الغياب
الا قامتي المنسية في مطلق الجمع
لذلك اتشتت بلا نوايا
لذلك اتشتت لاحتضن هدمي